العراق

وأما العراق فحدها في الطول من حد تكريت إلى عبادان على بحر فارس، وفي العرض عند بغداد من قادسية الكوفة إلى حلوان، وعرضها بواسط من واسط إلى قرب الطيب، وعرضها بالبصرة من البصرة إلى حدود جبى، والذي يطوف بحدودها من تكريت مما يلي المشرق حتى يجوز بحدود شهرزور، ثم يطوف على حدود حلوان، وحدود السيروان، والصيمرة، وحدود الطيب، وحدود السوس حتى ينتهي إلى حدود جبى، ثم إلى البحر فيكون في هذا الحد من تكريت إلى البحر تقويس، ويرجع إلى حد المغرب من وراء البصرة في البادية على سواد البصرة وبطائحها إلى واسط، ثم على سواد الكوفة وبطائحها إلى الكوفة، ثم على ظهر الفرات إلى الأنبار، ثم من الأنبار إلى تكريت بين دجلة والفرات، وفي هذا الحد من البحر إلى تكريت تقويس أيضا، فهذا المحيط بحدود العراق.

وأما المسافات فإنه من تكريت إلى البحر مما يلي المشرق مقوس نحو شهر، ومن البحر راجعا في حد المغرب إلى تكريت مقوس نحو شهر، ومن بغداد إلى سامراء ٣ مراحل، ومن سامراء إلى تكريت مرحلة، ومن بغداد إلى الكوفة ٤ مراحل، ومن الكوفة إلى القادسية مرحلة، ومن بغداد إلى واسط ٨ مراحل، ومن بغداد إلى حلوان ٩ مراحل، ومن بغداد إلى حدود الصيمرة والسيروان نحو ذلك، ومن واسط إلى البصرة ٨ مراحل، ومن الكوفة إلى واسط على طريق البطائح ٩ مراحل، ومن البصرة إلى البحر مرحلتان، وعرض العراق ببغداد من حلوان إلى القادسية ١١ مرحلة، وعرضه عند سامراء إلى حد شهرزور من جهة أذربيجان نحو ٥ مراحل، والعامر منه أقل من مرحلة، وعرضه بواسط نحو ٤ مراحل، وعرضه بالبصرة من البصرة إلى حدود جبى

نحو مرحلتين خفيفتين.

وأما مدنها، فالبصرة مدينة عظيمة، لم تكن في أيام العجم، وإنما اختطها المسلمون أيام عمر بن الخطاب، ومصرها عتبة بن غزوان، وهي خطط وقبائل كلها ويحيط بغربيها البادية مقوسا، وليس فيها مياه إلا أنهار، وذكر بعض أهل الأخبار: أن أنهار البصرة عدت أيام بلال بن أبي بردة فزادت على مائة ألف نهر وعشرين ألف نهر تجري فيها الزواريق، وقد كنت أنكر ما ذكر من عدد هذه الأنهار في أيام بلال بن أبي بردة حتى رأيت كثيرا من تلك البقاع، فربما رأيت في مقدار رمية سهم عددا من الأنهار صغارا تجري في كلها زواريق صغار، ولكل نهر اسم ينسب به إلى صاحبه الذي احتفر، أو إلى الناحية التي يصب فيها وأشباه ذلك من الأسامي فجوزت أن يكون ذلك في طول هذه المسافة وعرضها وأكثر أبنيتها بالآجر وهي من بين سائر مدينة عشرية، ولها نخيل متصلة من عبدسي إلى عبادان نيف وخمسين فرسخا متصلا، لا يكون الإنسان منه في مكان إلا بحيث نهر ونخيل، أو يكون بحيث يراهما، وهي في مستوى لا جبال فيه، ولا بحيث يقع البصر على جبال، وبها قبر طلحة بن عبيد الله من الصحابة في المدينة، وخارج المربد في البادية قبر أنس بن مالك والحسن البصري وابن سيرين والمشاهير من علماء البصرة وزهادها، ولها نهر يعرف بنهر الأبلة طوله أربعة فراسخ ما بين البصرة والأبلة، وعلى حافتي هذا الشهر قصور وبساتين متصلة كأنها بستان واحد، قد مدت على خيط واحد، ويتشعب هذه الأنهار إلى أنهار كثيرة فمنها ما يقارب هذا النهر في الكبر، كأن نخيلها غرست علي خيط واحد، وهذه الأنهار كلها مخترقة بعضها إلى بعض، وكذلك عامة أنهار البصرة، حتى إذا جاءهم مد البحر تراجع الماء في كل نهر حتى يدخل نخيلهم وحيطانهم، وجميع أنهارهم من غير تكلف، فإذا جزر الماء انحط حتى تخلو منه البساتين والنخيل ويبقى في الأنهار، إلا أن الغالب على مائهم

الملوحة، وإنما يستقون إذا جزر الماء إلى حد نهر معقل، ثم يعذب فلا يضره ماء البحر، والأبلة على هذا البحر وعلى ركن الأبلة في نهر الأبلة خورة عظيم الخطر، وربما سلمت السفن من سائر الأماكن في البحر وغرقت في هذا الخور يعرف بخور الأبلة، والأبلة مدينة صغيرة خصبة عامرة حد لها نهر الأبلة إلى البصرة، وحد لها دجلة التي يتشعب منها هذا النهر عاطفا عليها وينتهي عمودها إلى البحر بعبادان، وللبصرة مدن فأما عبادان، والأبلة، والمفتح، والمذار، فعلى شط دجلة وهي مدن صغار متقاربة في الكبر عامرة إلا الأبلة فإنها أكبرها، وفي حدود البصرة بين أضعاف قراها آجام كثيرة وبطائح أكثرها يسار فيها بالمداري قريبة القعر، كأنها كانت على قديم الأيام أرضا مكشوفة، ويشبه أن يكون لما بنيت البصرة وشقت الأنهار، واتصل بعضها ببعض في القرى والمجاري فتراجعت المياه وغلبت على ما يسفل من أرضها فصارت بحارا وبطائح.

وأما واسط فأنها نصفان على شاطئ دجلة من غربيها وشرقيها وبين الجانبين جسر من سفن، وفي كل جانب مسجد جامع، وهي محدثة في الإسلام أحدثها الحجاج بن يوسف وبها خضراء الحجاج، وهي مدينة يحيط بحدها الغربي البادية بعد مزارع يسيرة، وهي خصبة كثيرة الشجر، والنخيل، والزروع، وهي أصح هواء من البصرة، وليس لها بطائح وأراضي رساتيقها متصلة معمورة.

وأما الكوفة فإنها قريبة من البصرة في الكبر، وهواؤها أصح وماؤها أعذب من البصرة، وهي على الفرات، وبناؤها مثل بناء البصرة ومصرها سعد بن أبي وقاص، وهي أيضا خطط لقبائل العرب إلا أنها خراجية بخلاف البصرة؛ لأن ضياع الكوفة جاهلية، وضياع البصرة أحياء موات في الإسلام.

والقادسية والحيرة والخورنق هي على طرف البادية ما يلي الغرب ويحيط بها مما يلي المشرق النخيل، والأنهار، والزروع. وهما والكوفة في أقل من مرحلة، والحيرة مدينة جاهلية طيبة التربة مفترشة البناء كبيرة، إلا أنها خلت عن الأهل لما عمرت الكوفة وهواؤها وترابها أصح من الكوفة، وبينها وبين الكوفة نحو فرسخ، وقريب من الكوفة قبر علي -عليه السلام- وقد اختلف في مكانه فقيل: إنه في زاوية على باب جامع الكوفة أخفي من أجل بن أمية، ورأيت في هذا الموضع دكان علاف، ومنهم من زعم أنه من الكوفة على فرسخين وعليه قنطرة وآثار المقابر، والقادسية على شفير البادية، وهي مدينة صغيرة ذات نخيل ومياه وزروع ليس بالعراق بعدها ماء جار ولا شجر.

وأما بغداد فإنها مدينة محدثة في الإسلام لم تكن بها عمارة فابتني المنصور المدينة في الجانب الغربي، وجعل حواليها قطائع لحاشيته، ومواليه، وأتباعه مثل قطيعة الربيع والحربية وغيرهما، ثم عمرت فلما كان في أيام المهدي جعل معسكره في الجانب الشرقي فسمي عسكر المهدي، ثم عمرت بالناس والبنيان، وانتقلت الخلافة إلى الجانب الشرقي، وهي اليوم أسفل هذا الجانب بالحريم، ليس وراءها بنيان للعامة متصل وتفترش، قصور الخلافة وبساتينها من بغداد إلى نهر بين فرسخين على جدار واحد؛ حتى تتصل من نهر بين إلى شط دجلة، ثم يتصل البناء بدار الخلافة مرتفعا على دجلة إلى الشماسية نحو خمسة أميال وتحاذى الشماسية في الجانب الغربي الحربية فيمتد نازلا على دجلة إلى آخر الكرخ، ويسمى الشرقي جانب الطاق، وجانب الرصافة، وعسكر المهدي فمن نسبه إلى الطاق يعني: أن أوله باب الطاق وهو موضع السوق الأعظم، ومن نسبه إلى الرصافة نسبه إلى قصر كان الرشيد بناه بقرب مسجد الجامع بها، ومن نسبه إلى عسكر المهدي، فإن المهدي كان عسكر من هذا الجانب بحذاء مدينة أبي جعفر، ويسمى الجانب الغربي جاني الكرخ، وببغداد

مساجد جوامع في ثلاثة مواضع: في مدينة المنصور، وفي الرصافة، وفي دار الخلافة. وتتصل العمارة والبنيان بكلواذي وبها مسجر جامع، فلو عد في جملة بغداد لجاز، وقد عقد بين الجانبين على دجلة جسران، من سفن ويكون من باب خراسان إلى أن يبلغ باب الياسرية، وذلك عرض الجانبين جميعا نحو خمسة أميال، وأعمر بقعة منها الكرخ وبها اليسار ومساكن معظم التجارة، وأما الأشجار والأنهار التي في الجانب الشرقي، ودار الخلافة فإنها من ماء النهروان وتامرا، وليس يرتفع إليها من ماء دجلة إلا شيء يسير، يقصر عن العمارة وينضح بالدواليب، وأما الجانب الغربي فإنه قد شق إليه من الفرات نهر عيسى، لجنب قنطرة دمما وتتحلب من هذا النهر صبابات تجتمع فتصير نهرا يسمى الصراة، ويتفجر منها أنهار وبها عمارات الجانب الغربي، ويقع ما يبقى من ماء الصراة الصغيرة والكبيرة في دجلة وينتهي آخر نهر عيسى إلى دجلة في جوف مدينة بغداد.

وأما نهر عيسى فإن السفن تجري فيه من الفرات إلى أن يقع في دجلة، وأما الصراة فإن فيها حواجز تمنع من جرى السفن، فتنتهي السفن منها إلى قنطرة الصراة، ثم يحول ما فيها ويجاوز به ذلك الحاجز إلى سفن غيرها.

وبين بغداد والكوفة سواد مشتبك غير متميز تخترق إليه أنهار من الفرات: **فأولها**: مما يلي بغداد نهر صرصر عليه مدينة صرصر تجري فيه السفن، وعليه جسر من سفن تعبر عليه القوافل، ومدينة صرصر صغيرة عامرة بالنخيل والزروع وسائر الثمار من بغداد على ثلاثة فراسخ ثم ينتهي على فرسخين إلى نهر الملك، وهو نهر كبير أضعاف نهر صرصر، وعليه جسر يعبر من سفن وينتهي نهر الملك إلى قصر عمر بن هبيرة الفزاري بإحدى شعبتيه.

والأخرى: ترمي في دجلة عند كوثى نحو ضيعة تعرف بالكيل، ثم يمتد

عمود الفرات حتى يخرج منه نهر سورا، وهو نهر كثير الماء ليس يخرج من الفرات شعبة أكبر منه حتى ينتهي إلى سورا، ثم إلى سائر سواد الكوفة، ويقع الفاضل في البطائح.

وكربلاء من غربي الفرات فيما يحاذي قصر بن هبيرة. وأما سامرا فإنها كلها في شرقي دجلة، وليس معها في الجانب الشرقي ماء جار، لكن عماراتها، وزروعها، وأشجارها فيما يقابلها من غربي دجلة، وسامرا مدينة إسلامية ابتدأها المعتصم وتممها المتوكل، ومكثت برهة دار خلافة، وهواؤها، وثمارها أصح من بغداد.

وأما النهروان فإنها مدينة يشق نهر النهروان وسطها صغيرة عامرة من بغداد على أربعة فراسخ، ونهر النهروان يفضي إلى سواد بغداد فيما يسفل عن دار الخلافة إلى أسكاف، وغيرها من المدن والقرى، فإذا جزت النهروان إلى الدسكرة خفت المياه والنخيل، ثم يصير من الدسكرة إلى حد حلوان كالبادية المنقطعة العمارة مفترشة منفردة، المنازل والقرى حتى تدور على تامرا، وحدود شهرزور إلى حد تكريت.

وأما المداين فمدينة صغيرة جاهلية، قد كانت عظيمة فنقل عامة أبنيتها إلى بغداد، وهي من بغداد على مرحلة، وكانت مسكن الأكاسرة، وبها إيوان كسرى إلى يومنا هذا، وهو إيوان عظيم معقود، من آجر وجص ليس للأكاسرة إيوان أكبر منه، ولم نكثر من وصف بغداد لاشتهار وصفها عند الخاص والعوام فاكتفينا من وصف بغداد بجملة يسيرة ذكرناها؛ لئلا يطول به الكتاب.

وبابل قرية صغيرة إلا أنها أقدم أبنية العراق، وينسب ذلك الإقليم إليها؛

لقدمها، وكانت ملوك الكنعانيين وغيرهم يقيمون بها، وبها آثار أبنية تشبه أن تكون في قديم الأيام مصرا عظيما، ويقال: إن الضحاك أول من بنى بابل. وكوثى ربا يقال: إن إبراهيم الخليل -عليه السلام- بها طرح في النار، وكوثى اثنان: أحدهما كوثى الطريق، والآخر كوثى ربا، وبكوثى ربا إلى هذه الغاية تلال عظيمة من رماد، يزعمون أنها نار نمرود بن كنعان، التي طرح فيها إبراهيم -عليه السلام- والجامعان منبر صغير حواليها رستاق عامر خصب جدا. والمداين من شرقي دجلة من بغداد على مرحلة، ويقال: إن ذا القرنين أقام بالمداين إلى أن مات، والأخبار عنه تكذب، فإن الأكثرين على أنه سم في منصرفه من أرض الصين، وحمل تابوته إلى أمه باسكندرية، ويقال: إن جانبي المداين المكتنفين لدجلة كانت على عهد الفرس موصولا بينهما بجسر على دجلة، مبني بالآجر وليس لذلك أثر.

وأما عكبراء، والبردان، والنعمانية، ودير العاقول، وجبل، وجرجرايا، وفم الصلح، ونهر سابس، وسائر ما ذكرنا على شط دجلة من المدن فهي متقاربة في الكبر ليس بها مدينة كبيرة، وهي مشتبكة العمارة، وكذلك لكل مدينة من ذلك كورة.

وأما حلوان فهي مدينة عامرة ليس في أرض العراق بعد البصرة والكوفة، وبغداد، وواسط، وسامرا، والحيرة مدينة أكبر منها، وأكثر ثمارها التين، وهي بقرب الجبل وليس للعراق مدينة بقرب الجبل غيرها. وربما سقط بها الثلج فأما أعلى جبلها فإن الثلج يسقط به دائما.

والدسكرة مدينة بها نخيل وزروع عامرة، وخارجها حصن من طين داخله فارغ، وإنما هو مزرعة يقال: إن الملك كان يقيم هناك في بعض فصول السنة فسميت دسكرة الملك لذلك.

وأما من تكريت إلى أن تتجاوز سامرا إلى قرب العلث، فكأنك تطوف على مثال القوس إلى الدسكرة، ثم تطوف على مثال القوس إلى حد عمل واسط من حد العراق إلى حد الجبل، فإنه قليل العمارة فيها قرى مفترشة، والغالب عليها الأكراد، والأعراب وهي مراع لهم، وكذلك من تكريت من غربيها إلى أن تنتهي إلى الأنبار بين دجلة والفرات قليل العمارة، وإنما العمارة منه ما يحاذي سامرا أميالا يسيرة والباقي بادية.

ولم أبالغ في وصف العراق لإكثار الناس فيها واشتهار عامة ما يذكر منها فهذه صفة جامعة لها وجيزة إذ كان قصدي فيها وفي غيرها إلى تخطيط هيآتها.